

ابو حامد الغزالي *

٧

﴿ رأيه في التوحيد والتوكل ﴾

« ويدخل فيه بيان وحدة الوجود والجبر والنسب »

بيان حقيقة التوحيد الذي هو اصل التوكل

اعلم أن التوكل من ابواب الايمان وجميع ابواب الايمان لا تنتظم الا بعلم وحال وعمل ، والتوكل كذلك ينتظم من علم هو الاصل وعمل هو الثمرة وحال هو المراد باسم التوكل ، فلنبداً ببيان العلم الذي هو الاصل وهو المسمى ايماناً في اصل اللسان اذ الايمان هو التصديق وكل تصديق بالقلب فهو علم واذا قوي سمي يقيناً ولكن ابواب اليقين كثيرة ونحن انما نحتاج منها الى ما نبني عليه التوكل وهو التوحيد الذي يترجمه قولك لا اله الا الله وحده لا شريك له ، والايمان بالقدرة التي يترجم عنها قولك له الملك ، والايمان بالجلود والحكمة الذي يدل عليه قولك وله الحمد . فمن قال لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير تم له الايمان الذي هو اصل التوكل ، اعني أن يصير معنى هذا القول وصفا لازماً لقلبه غالباً عليه فاما التوحيد فهو الاصل والقول فيه يطول وهو من علم المكاشفة ولكن بعض علوم المكاشفات متعلق بالاعمال بواسطة الاحوال ولا يتم علم المعاملة الا بها فاذا لا تعرض الا للقدر الذي يتعلق بالمعاملة والا فالتوحيد هو البحر الخضم الذي لا ساحل له فنقول : للتوحيد أربع مراتب وهو ينقسم الى لب والى لب اللب والى قشر والى قشر القشر ولنمثل ذلك تقريبا الى الافهام الضعيفة بالجوز في قشرته

* نقلا عن كتاب احياء علوم الدين وهو تابع لما في ص ٦٢١ من الجزء التاسع

العليا فان له قشرتين وله لب وللب دهن هو لب اللب فالرتبة الاولى من التوحيد هي أن يقول الانسان بلسانه لا آله الا الله وقلبه غافل عنه او منكر له كتوحيد المنافقين . والثانية ان يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما صدق به عموم المسلمين وهو اعتقاد العوام . والثالثة أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق وهو مقام المقربين وذلك بأن يرى اشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار . والرابعة أن لا يرى في الوجود الا واحدا وهي مشاهدة الصديقين وتسميه الصوفية الفناء في التوحيد لانه من حيث لا يرى الا واحدا فلا يرى نفسه ايضا واذا لم ير نفسه لكونه مستغرقا بالتوحيد كان فانيا عن نفسه في توحيده بمعنى انه في عن رؤية نفسه وانخلق

فالاول موحد بمجرد اللسان ويعصم ذلك صاحبه في الدنيا عن السيف واللسان ، والثاني موحد بمعنى انه معتقد بقلبه مفهوم لفظه وقلبه خال عن التكذيب بما انمقد عليه قلبه وهو عقدة على القلب ليس فيه انشراح وانفساح ولكنه يحفظ صاحبه من العذاب في الآخرة إن توفي عليه ولم تضعف بالمعاصي عقيدته ولهذا المقدم حيل يقصد بها تضعيفه وتحليله تسمى بدعة وله حيل يقصد بها دفع حيلة التحليل والتضعيف ويقصد بها ايضا احكام هذه العقدة وشدها على القلب وتسمى كلاما والعارف بها يسمى متكلما وهو في مقابلة المبتدع ومقصده دفع المبتدع عن تحليل هذه العقدة عن قلوب العوام وقد يخص المتكلم باسم الموحد من حيث انه يحمي بكلامه مفهوم لفظ التوحيد على قلوب العوام حتى لا تنحل عقده ، والثالث موحد بمعنى انه لم يشاهد الا فاعلا واحدا اذ انكشف له الحق كما هو عليه ولا يرى فاعلا بالحقيقة الا واحدا وقد انكشفت له الحقيقة كما هي عليه الا انه كلف قلبه ان يعقد على مفهوم لفظ الحقيقة فان تلك رتبة العوام والمتكلمين اذ لم يفارق المتكلم العامي في الاعتقاد بل في صفة تفتيق الكلام الذي به يدفع حيل المبتدع عن تحليل هذه العقدة ، والرابع موحد بمعنى انه لم يحضر في شهوده غير الواحد فلا يرى الكل من حيث انه كثير بل من حيث انه واحد وهذه هي الغاية القصوى في التوحيد . فالاول كالقشرة العليا من الجوز والثاني كالقشرة

السفلى والثالث كالب والرابع كالدهن المستخرج من اللب ، وكما أن القشرة العليا من الجوز لا خير فيها بل ان اكل فهو من المذاق وان نظر الى باطنه فهو كره المنظر وان اتخذ حطباً أطفأ النار واكثر الدخان وان ترك في البيت ضيق المكان فلا يصلح الا أن يترك مدة على الجوز لتصون ثم يرمى به عنه فكذلك التوحيد بمجرد اللسان دون التصديق بالقلب عديم الجدوى كثير الضرر مذموم الظاهر والباطن لكنه ينفع مدة في حفظ القشرة السفلى الى وقت الموت والقشرة السفلى هي القلب والبدن ، وتوحيد المناق يهون بدنه عن سيف الفزاة فانهم لم يؤعروا بشق القلوب والسيف انما يصيب جسم البدن وهو القشرة وانما يتجرد عنه بالموت فلا يبقى لتوحيده فائدة بعده وكما أن القشرة السفلى ظاهرة النفع بالاضافة الى القشرة العليا فانها تصون اللب وتحرسه عن الفساد عند الادخار واذا فصلت امكن ان ينفع بها حطباً لكنها نارة القدر بالاضافة الى اللب وكذلك مجرد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالاضافة الى مجرد نطق اللسان ناقص القدر بالاضافة الى الكشف والمشاهدة التي تحصل بانسراح الصدر وانفساحه واشراق نور الحق فيه اذ ذلك الشرح هو المراد بقوله تعالى (فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام) وقوله عز وجل (أمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه)

وكما ان اللب نفيس في نفسه بالاضافة الى القشر وأ كلة المقصود ولكنه لا يتخلو عن شوب عصاره بالاضافة الى الدهن المستخرج منه فكذلك توحيد العقل مقصد عال للسالكين لكنه لا يتخلو عن شوب ملاحظة الغير والالتفات الى الكثرة بالاضافة الى من لا يشاهد سوى الواحد الحق فان قلت كيف يتصور أن لا يشاهد الا واحدا وهو يشاهد السماء والارض وسائر الاجسام المحسوسة وهي كثيرة فكيف يكون الكثير واحدا ؟ فاعلم ان هذه غاية علوم المكاشفات واسرار هذا العلم لا يجوز ان تسطر في كتاب فقد قال العارفون : افشاء سر الربوبية كفر ثم هو غير متعلق بعلم المعاملة نعم ذكر ما يكسر سورة استبعادك عن وهو ان الشيء قد يكون كثيرا بنوع مشاهدة واعتبار ويكون واحدا بنوع آخر من المشاهدة والاعتبار وهذا كما ان الانسان كثير ان اتفت الى روحه وجسده واجارفة وعروقه وعظاه واحشائه وهو باعتبار آخر ومشاهدة اخرى

واحد اذ نقول انه انسان واحد فهو بالاضافة الى الانسانية واحد وكم من شخص يشاهد انسانا ولا يخطر بباله كثرة امثاله وعروقه واطرافه وتفصيل روحه وجسده واعضائه والفرق بينهما انه في حالة الاستراق والاستهتار به مستغرق بواحد ليس فيه تفریق وكأنه في عين الجمع والملتفت الى الكثرة في تفرقة فكذلك كل ما في الوجود من اسنالق والخلق اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة فهو باعتبار واحد من الاعتبارات واحد وباعتبارات آخر سواء كثير وبعضها اشد كثرة من بعض ومثاله الانسان وان كان لا يطابق الغرض ولكنه ينه في الجملة على كيفية مصير الكثرة في حكم المشاهدة واحدا وتستفيد بهذا الكلام ترك الانكار والوجود المقام تلبه وتؤمن به ايمان تصديق فيكون لك من حيث انك مؤمن بهذا التوحيد نصيب وان لم يكن ما آمنت به صفتك كما انك اذا آمنت بالنبوة وان لم تكن نبيا كان لك نصيب منه بقدر قوة ايمانك وهذه المشاهدة التي لا يظهر فيها الا الواحد الحق تارة تدوم وتارة تطرا كالبرق الخاطف وهو الاكثر والدوام نادر عزيز والى هذا اشار الحسين بن منصور الخلاج حيث رأى الخواص يدور في الاسفار فقال فيما ذا انت ؟ فقال ادور في الاسفار لا صحح حالي في التوكل وقد كان من المتوكلين فقال الحسين قد افيت عمرك في عمران باطنك فاين الفناء في التوحيد ؟ فكأنت الخواص كان في تصحيح المقام الثالث في التوحيد فطالبه بالمقام الرابع

فهذه مقامات الموحدين في التوحيد على سبيل الاجمال فان قلت فلا بد لهذا من شرح بمقدار ما يفهم كيفية ابتناء التوكل عليه فأقول أما الرابع فلا يجوز الخوض في بيانه وليس التوكل أيضا مبني عليه بل يحصل حال التوكل بالتوحيد الثالث ، وأما الاول وهو النفاق فواضح ، وأما الثاني وهو الاعتقاد فهو وجود في عموم المسلمين وطريقنا كيدته بالكلام ودفع حيل المتدعة فيه مذكور في علم الكلام وقد ذكرنا في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد القدر المهم منه ، وأما الثالث فهو الذي يبنى عليه التوكل اذ بمجرد التوحيد بالاعتقاد لا يورث حال التوكل فلندكر منه القدر الذي يرتبط التوكل به دون تفصيله الذي لا يحتمله أهمل هذا الكتاب وحاصله أن يتكشف لك أن لا فاعل إلا الله تعالى وأن كل موجود من خالق وورث وطاء ومنع

وحياة وموت وغنى وفقير إلى غير ذلك مما يطلق عليه اسم - فالمفرد بإبداعه واختراعه هو الله عز وجل لا شريك له فيه وإذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره بل كان منه خوفك وإليه رجائك وبه ثقك وعليه اتكالك فإنه الفاعل على الأفراد دون غيره وما سواه مسخرون لا استقلال لهم بتحرك ذرة من ملكوت السموات والأرض

وإذا انفتحت لك أبواب المكاشفة اتضح لك هذا انصاحا ثم من المشاهدة بالبصر وإنما يصدك الشيطان عن هذا التوحيد في مقام يتغنى به أن يطرق إلى قلبك شائبة الشرك لسببين أحدهما الالتفات إلى اختيارات الحيوانات والثاني الالتفات إلى الجمادات أما الالتفات إلى الجمادات فكاعتمادك على المطر في خروج الزرع ونباته ونفاته وعلى النسيم في نزول المطر وعلى البرد في اجتماع الغيم وعلى الريح في استواء السفينة وسيرها وهذا كله شرك في التوحيد وجهل بحقائق الأمور ولذلك قال تعالى (فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) قيل معناه أنهم يقولون لولا استواء الريح لما نجونا، ومن انكشف له أمر العالم كما هو عليه علم أن الريح هو الهواء والهواء لا يتحرك بنفسه مالم يحركه محرك وكذلك محركه وهكذا إلى أن ينتهي إلى المحرك الأول الذي لا محرك له ولا هو متحرك في نفسه عز وجل فالنفاث البعد في النجاة إلى الريح يضاهي النفاث من أخذت حزر قبته فكتب الملك توقيعها بالفرعنة وتخيلته فأخذ يشتغل بذكر الحبر والقلم والقلم الذي به كتب التوقيع يقول أولا القلم لما تخصصت فيرى نجاته من القلم لأم من محرك القلم وهو غاية الجهل ومن علم أن القلم لا يحكم له في نفسه وإنما هو مسخر في يد الكاتب لم يلتفت إليه ولم يشكر إلا الكاتب بل ربما يدهشه فرح النجاة وشكر الملك والكاتب من أن يخطر بباله القلم والحبر والدواة والشمس والقمر والنجوم والمطر والغيم والأرض وكل حيوان وجماد مسخرات في قبضة القدرة كتسخير القلم في يد الكاتب بل هذا تمثيل في سعة لا اعتقادك أن الملك الموقع هو كاتب التوقيع والحق أن الله تبارك وتعالى هو الكاتب لقوله تعالى (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) فإذا انكشف لك أن جميع ما في السموات والأرض مسخرات على هذا الوجه انصرف عنك الشيطان

خائباً وأيس عن مزج توحيدك بهذا الشرك فأتاك في المهلكة الثانية وهي الالتفات إلى اختيار الحيوانات في الأفعال الاختيارية ويقول كيف ترى الكل من الله وهذا الإنسان يعطيك رزقك باختياره فإن شاء أعطاك وإن شاء قطع عنك وهذا الشخص هو الذي يحز رقبتك بسيفه وهو قادر عليك إن شاء حز رقبتك وإن شاء عفا عنك فكيف لا تخافه وكيف لا ترجوه وأمرك بيده وأنت تشاهد ذلك ولا تشك فيه ؟ وبقول له أيضاً نعم إن كنت لا ترى القلم لأنه مسخر فكيف لا ترى الكاتب بالقلم وهو المسخر له ؟ وعند هذا زل أقدام الكثيرين الأعباد الله المخلصين الذين لاسلطان عليهم للشيطان اللعين فشاهدوا بنور البصائر كون الكاتب مسخراً مضطراً كما شاهد جميع الضعفاء كون القلم مسخراً وعرفوا أن غلط الضمائم في ذلك كغلط النملة مثلاً لو كانت تدب على الكاغد فترى رأس القلم يسود الكاغد ولم يمتد بصرها إلى اليد والأصابع فضلاً عن صاحب اليد فغلطت وظنت أن القلم هو المسود والبياض وذلك لقصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم لضيق حدقتها فكذلك من لم ينشرح بنور الله تعالى صدره للإسلام قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السموات والأرض ومشاهدة كونه قاهراً وراء الكل فوقف في الطريق على الكاتب وهو جهل محض

بل أر باب القلوب والمشاهدات قد أنطق الله في حقهم كل ذرة في السموات والأرض بقدرته التي بها نطق كل شيء حتى سمعوا تقديسها وتسيبها لله تعالى وشهادتها على نفسها بالعجز بلسان ذلق تكلم بلا حرف ولا صوت لا يسمعه الذين هم عن السمع معزولون ولست أعني به السمع الظاهر الذي لا يجاوز الأصوات فإن الخمار شريك فيه ولا قدر لما يشارك فيه البهائم وإنما أريد به سمعاً يدرك به كلام ليس بحرف ولا صوت ولا هو عربي ولا عجمي فإن قلت فهذه أعجوبة لا يقبلها العقل نصف لي كيفية نطقها وانها كيف نطقت وبماذا نطقت وكيف سبحت وقرست وكيف شهدت على نفسها بالعجز فأعلم أن لكل ذرة في السموات والأرض مع أر باب القلوب مناجاة في السر وذلك مما لا ينحصر ولا يتناهى فتنها كلمات تستمد من بحر كلام الله تعالى الذي لا نهاية له (قل أر كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر الآية ثم انها تلقاها بأسرار الملك والمليكوت وافشاء السراوئم بل صدور الاحرار قبور الاسرار وهل رأيت قط

أميناً على أسرار الملك قدنوحى بخفاياه فنأدى بسرّه على ملأ من الخلق؟ ولو جاز افشاء كل سر لنا لما قال النبي صلى الله عليه وسلم «لو علمت ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» بل كان يذكر ذلك لهم حتى يكون ولا يضحكون ولما نهى عن افشاء سرّ القدر ولما قال «إذا ذكر النجوم فامسكوا وإذا ذكر القدر فامسكوا وإذا ذكر أصحابي فامسكوا» ولما خص حذيفة رضي الله عنه ببعض الأسرار

فأذا عن حكايات مناجاة ذوات الملك والملوك لهلوب أرباب المشاهدات مانان: أحدها استحالة افشاء السر والثاني خروج كلماتها عن الحصر والنهاية ولكننا في المثال الذي كنا فيه وهي حركة القلم بمحكي من مناجاتها قدرا يسيرا يفهم به على الاجمال كيفية ابتناء التوكل عليه وتردد كلماتها الى الحروف والاصوات وان لم تكن هي حروفاً واصواتاً ولكن هذه ضرورة التفهيم فنقول قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله تعالى للكاعد وقد رآه أسود وجهه بالخبر ما بال وجهك كان أبيض مشرقاً والآن قد ظهر عليه السواد! فلم يسودت وجهك وما السبب فيه؟ فقال الكاعد ما انصفتني في هذه المقالة فاني ما سودت وجهي بنفسي ولكن سل الخبر فانه كان مجموعاً في المحبرة التي هي مستقره ووطنه فسافر عن الوطن ونزل بساحة وجهي ظلماً وعدواناً فقال صدقت فسأل الخبر عن ذلك فقال ما انصفتني فاني كنت في المحبرة وادعاً ساكناً عازماً على أن لا أبرح منها فاعتدى علي القلم بطمعه الفاسد واختطفني من وطني واجلاني عن بلادي وفرق جمعي وبددني كما ترى على ساحة بيضاء فالسؤال عليه لا على فقال صدقت ثم سألت القلم عن السبب في ظلمه وعدوانه واخراج الخبر من أوطانه فقال سل اليد والاصابع فاني كنت قصيراً نابتاً على شط الأنهار متنزه بين خضرة الأشجار فنبأني اليد بسكين فنجحت عني قشري ومزقت عني ثيابي واقتلعتني من أصلي وفصلت بين أنا وبين ثم برتني وشقت رأسي ثم غمستني في سواد الخبر وموارته وهي تستخدمني وتمشيني على قمة رأسي ولقد نثرت الملح على جرحي بسوءك وعتابك ففتح عني وسل من قهري فقال صدقت ثم سألت اليد عن ظلمها وعدوانها على القلم واستخدامها له فقالت اليد ما أنا الا لحم وعظم ودم وعمل رأيت الحما يظلم أوجسماً يتحرك بنفسه وإنما أنا مركب مسخر ركبتني فارس يقال له القدرة والقوة فهي

التي تردني وتجول بي في نواحي الارض أما ترى المدر والحجر والشجر لا يتعدى شيء منها مكانه ولا يتحرك بنفسه اذا لم يركبه مثل هذا الفارس القوي القاهر أما ترى أيدي الموتى تساويني في صورة اللحم والعظم والدم ثم لا معاملة بينها وبين القلم فأنا أيضا من حيث أنا لا معاملة بيني وبين القلم فسل القدرة عن شأني فاني مركب أزعجني من ركبتي فقال صدقت ثم سألت القدرة عن شأنها في استعمالها اليد وكثرة استخدامها وترديدها فقالت دع عنك لومي ومعاتبتي فكم من لائم ملهم وكم من ملوم لا ذنب له وكيف خفي عليك أمري وكيف ظننت اني ظلمت اليد لما ركبها وقد كنت لها راحة قبل التحريك وما كنت أحركها ولا اسخرها بل كنت نائمة ساكنة نوما ظنن الظانون بي اني ميتة أو معدومة لاني ما كنت أتحرك ولا أحرك حتى جاءني موكل أزعجني وأرهقني الى ما تراه مني فكانت لي قوة على مساعدته ولم تكن لي قوة على مخالفته وهذا الموكل يسمى الارادة ولا أعرفه الا باسمه وهجومه وصياله اذ ازعجني من غمرة النوم وأرهقني الى ما كان لي مندوحة عنه لو خلاني ورأيي فقال صدقت ثم سألت الارادة ما الذي جراك على هذه القدرة الساكنة المطمئنة حتى صرقتها الى التحريك وأرهقتها اليه ارهاقا لم تجده عنه مخلصا ولا مناصا فقالت الارادة لا تمجلى علي فلعل لنا عذرا وأنت تلوم فاني ما انتهضت بنفسني ولكني أنهضت وما انبعثت ولكني بعثت بحكم قاهر وأمر حازم وقد كنت ساكنة قبل مجيئه ولكن ورد علي من حضرة القلب رسول العلم على لسان العقل بالاشخاص للقدرة فاشخصتها باضطراب فاني مسكنة مسخرة تحت قهر العلم والعقل ولا أدري بأي جرم وقفت عليه وسخرت له والزمته طاعته لكني ادري اني في دعة وسكون مالم يرد علي هذا الوارد القاهر وهذا الحاكم العادل أو الظالم وقد وقفت عليه وقفا والزمته طاعته الزامابل لا يفتي لي منه مها جرم حكمه طاقة على المخالفة لعمري مادام هو في التردد مع نفسه والتعبر في حكمه فأنا ساكنة لكن مع استنصار وانتظار لحكمه فاذا انجز حكمه أزعجت بطبع وقهر تحت طاعته واشخصت القدرة لتقوم بموجب حكمه فسل العلم عن شأني ودع عني عتابك فاني كما قال القائل
متى ترحلت عن قوم وقد قدروا ان لا تفارقهم فالراجلون هم
فقال صدقت وأقبل على العلم والعقل والقلب مطالباهم ومعاتبا اياهم على استنهابهم

الارادة وتسخيرها لاشخاص القدرة فقال العقل اما انا فسراج ما اشتمت بنفسي
ولكني أشمت وقال القلب أما أنا فلوح ما انبسطت بنفسي ولكن بسطت وقال
العلم اما انا فنقش نقشت في بياض لوح القلب لما اشرق سراج العقل وما انحططت
بنفسي فكم كان هذا اللوح قبل خاليا عني فسل القلم عني لان الخط لا يكون الا بالقلم
فصند ذلك تمتع السائل ولم يقنعه جواب وقال قد طال نبي في هذا الطريق
وكررت منازلتي ولا يزال بجياني من طمعت به في معرفة هذا الامر منه على غيره
ولكني كنت أطيب نفسه بكثرة الترداد لما كنت أسمع كلاما مقبولا في الفوائد
وعذرا فظاهرا في دفع السؤال فأما قولك اني خط وقرئت وانما خطني قلم فلست
أفهمه فاني لا أعلم قلما الا من القصب ولا لوحا الا من الحديد أو الخشب ولا خطا
الا بالحبر ولا سراجا الا من النار واني لا سمع في هذا المنزل حديث اللوح والسراج
وانخط والقلم ولا أشاهد من ذلك شيئا ، أسمع جمجمة ولا أرى طحنا ،

فقال له العلم ان صدقت فيما قلت فبضاعتك مزجاة وزادك قليل ومر بك ضعيف واعلم
ان المهالك في الطريق التي توجهت اليها كثيرة فالصواب لك أن تنصرف وتدع
ما أنت فيه فما هذا بهشك فادرج عنه فكل ميسر لخالق له وان كنت راغبا في استتمام
الطريق الى المقصد فألق سممك وانت شهيد واعلم ان العوالم في طريقك هذا
ثلاثة عالم الملك والشهادة اولها وتقد كان الكاغد والحبر والقلم واليد من هذا العالم
وقد جاوزت تلك المنازل على سهولة ، والثاني عالم الملكوت وهو وراثي فاذا جاوزتني
انتهيت الى منازل وفيه المهامه الفصح والجبال الشاهقة والبحار المفرقة ولا أدري كيف
تسلم فيها ، والثالث وهو عالم الجبروت وهو بين عالم الملك وعالم الملكوت ولقد قطعت
منها ثلاث منازل في أوائلها منزل القدرة والارادة والعلم وهو واسطة بين عالم الملك
والشهادة والملكوت لان عالم الملك اسهل منه طريقا وعالم الملكوت اوعر منه منهجا
وانما عالم الجبروت بين عالم الملك وعالم الملكوت يشبه السفينة التي هي في الحركة
بين الارض والماء فلا هي في حد اضطراب الماء ولا هي في حد سكون الارض
وثباتها وكل من يمشي على الارض يمشي في عالم الملك والشهادة فان جاوزت قوته
(المار ج ١١) (١٠٦) (المجد الثاني عشر)

الى أن يقوى على ركوب السفينة كان كمن يمشي في عالم الجبروت فان انتهى الى أن يمشي على الماء من غير سفينة مشى في عالم الملكوت من غير تنعم فان كنت لا تقدر على المشي على الماء فانصرف ، فقد جاوزت الارض وخلفت السفينة ولم يبق بين يديك الا الماء الصافي وأول علم الملكوت مشاهدة القلم الذي يكتب به العلم في لوح القلب وحصول اليقين الذي يمشي به على الماء اما سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في عيسى عليه السلام « لو ازداد يقينا لمشي على الهواء » لما قيل له انه كان يمشي على الماء

فقال السالك السائل قد تبخرت في امري واستشعر قايي خوفا مما وصفته من خطر الطريق ولست أدري اطلق قطع هذه المهامه التي وصفتها ام لا فهل لذلك من علامة ؟ قال نعم افتح بصرك واجمع ضوء عينيك وحدقه نحووي فان ظهر لك القلم الذي به انكبت في لوح القلب فيشبه ان تكون اهلا لهذا الطريق فان كل من جاوز عالم الجبروت وقرع بابا من ابواب الملكوت كوشف بالقلم اما ترى ان النبي صلى الله عليه وسلم في اول امره كوشف بالقلم اذ أنزل عليه (اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم) فقال السالك لقد فتحت بصري وحدقته فوالله ما ارى قصبا ولا خشبا ولا اعلم قلما الا كذلك فقال العلم لقد ابعدت النجمة اما سمعت ان متاع البيت يشبه رب البيت اما علمت ان الله تعالى لا تشبه ذاته سائر الذوات فكذلك لا تشبه يده الايدي ولا قلمه الاقلام ولا كلامه سائر الكلام ولا خطه سائر الخطوط وهذه امور الهية من عالم الملكوت فليس الله تعالى في ذاته بجسم ولا هو في مكان بخلاف غيره ولا يده لحم وعظم ودم بخلاف الايدي ولا قلمه من قصب ولا لوحه من خشب ولا كلامه بصوت وحرف ولا خطه رقم ورمم ولا جبره زاج وعنص فان كنت لا تشاهد هذا هكذا فما اراك الا مخشا بين فحولة التنزيه وانوثة التشبيه مذبذبا بين هذا وذا لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء فكيف نزهت ذاته وصفاته تعالى عن الاجسام وصفاتها ونزهت كلامه عن معاني الحروف والأصوات واخذت تتوقف في يده وقلمه ولوحه وخطه فان كنت قد فهمت من قوله صلى الله عليه وسلم « ان الله خلق آدم على صورته » الصورة الظاهرة المدركة

بالبصر فكان مشبها مطلقا كما يقال كن يهوديا صرفا والا فلا تلعب بالتوراة وان فهمت
منه الصورة الباطنة التي تدرك بالبصائر لا بالأبصار فكان منزلها صرفا ومقدسا فخلا واطور
الطريق فانت بالواد المقدس طوى واستمع بسر قلبك لما يوحى فملك تجمد على النار
هدى وملك من سرادقات العرش تنادي بما نودي به موسى اني انا ربك فلا سمع
السالك من العلم ذلك استشر قصور نفسه وانه عنث بين التشبيه والتنزيه فاشتمل
قلبه نارا من حدة غضبه على نفسه لما رآها بعين التقص ولقد كان زيته الذي في مشكاة
قلبه يكاد يضيء ولولم تمسه نار فلما نفخ فيه العلم بحدته اشتمل زيته فأصبح نورا على
نور فقال له العلم اعتم الآن هذه الفرصة وافتح بصرك لملك تجمد على النار هدى
فتفتح بصره فانكشف له القلم الالهي فاذا هو كما وصفه العلم في التنزيه ما هو من خشب
ولا قصب ولا له رأس ولا ذنب وهو يكتب على الدوام في قلوب البشر كلهم اصناف
العلوم وكان له في كل قلب رأسا ولا رأس له فقضى منه العجب وقال نعم الرفيق العلم
فجزاه الله تعالى عني خيرا اذ الآن ظهر لي صدق انبائه عن اوصاف القلم فاني اراه
قلما لا كالأقلام

فمنذ هذا ودع العلم وشكره وقال قد طأرت مقامي عندك ومرادتي لك وانا
أزعم على أن اسافر الى حضرة القلم وأسأله عن شأنه فسافر اليه وقال له ما بالك
ايها القلم تخط على الدوام في القلوب من العلوم ما تبحث به الاوادات الى اشخاص
القدر وصرفه الى المقدورات فقال أو قد نسيت ما رأيت في عالم الملك والشهادة
وسمعت من جواب القلم اذ سألته فأحالك على اليد قال لم أنس ذلك قال فجواني
مثل جوابه قال كيف وانت لا تشبهه قال القلم أما سمعت ان الله تعالى خلق آدم
على صورته قال نعم قال فسل عن شأني الملقب بيمين الملك فاني في قبضته وهو الذي
يرددني وانا مقهور مسخر فلا فرق بين القلم الالهي وقلم الآدمي في معنى التسخير
وانما الفرق في ظاهر الصورة فقال : فمن يمين الملك ؟ فقال القلم : أما سمعت قوله
تعالى (والسماوات مطويات بيمينه) قال نعم والأقلام ايضا في قبضة يمينه هو الذي
يردها فسافر السالك من عنده الى اليمين حتى شاهده ورأى من عجائبه ما يزيد
على عجائب القلم ولا يجوز وصف شيء من ذلك ولا شرحه بل لأهوي مجلدات

كثيرة عشر عشر وصفه والجملة فيه انه يمين لا كالاتيان ويد لا كالاتيدي واصبع لا كالاتصابع فرأى القلم محركا في قبضته فظهر له عذر القلم فسأل اليمين عن شأنه وتحريكه للقلم فقال جواني مثل ما سمعته من اليمين التي رأيتها في عالم الشهادة وهي الحوالة على القدرة اذ اليد لا حكم لها في نفسها وانما محركا القدرة لا محالة فسافر السالك الى عالم القدرة ورأى فيه من العجائب ما استحقر عندها ما قبله وسألها عن تحريك اليمين فقالت انما انا صفة فسأل القادر اذ العمدة على الموصوفات لا على الصفات وعند هذا كاد أن يزيع ويطلق بالجراءة لسان السؤال فثبت بالقول الثابت ونودي من وراء حجاب سرادقات الحضرة (لا يستل عما يفعل وهم يستلون) فنشبت هبة الحضرة فخر صمعا بضرب في غشيته فلما افات قال سبحانك ما اعظم شأنك ثبت اليك وتوكلت عليك وآمنت بانك الملك الجبار الواحد القهار فلا أخاف غيرك ولا ارجو سواك ولا اعوذ الا بعفوك من عقابك ورضاك من سخطك ومالي الا أن أسألك وانزع اليك وأبتهل بين يديك فأقول اشرح لي صدري لأعرفك واحلل عقدة من لساني لاني عليك فنودي من وراء الحجاب اياك أن تطمع في الثناء وتزيد على سيد الانبياء بل ارجع اليه فما آتاك فخذ وما نهاك عنه فانته عنه وما قاله فقله فانه ما زاد في هذه الحضرة على أن قال سبحانك لا أحصي ثناء عليك كما اثنيت على نفسك فقال اني ان لم يكن لسان جراءة على الثناء عليك فهل للقلب مطعم في معرفتك فنودي اياك ان تتخطى رقاب الصديقين فارجع الى الصديق الاكبر فاقتد به فان اصحاب سيد الانبياء كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم أما سمعته يقول : العجز عن ادراك الادراك ادراك . فيكفيك نصيبا من حضرتنا ان تعرف انك محروم عن حضرتنا عاجز عن ملاحظة جمالنا وجلالنا

فخذ هذا رجع السالك واعتذر عن استنائه ومعاتباته وقال ليمين والقلم والعلم والارادة والقدرة وما بعدها اقبلوا عذري فاني كنت غريبا حديث العهد بالدخول في هذه البلاد ولكل داخل دهشة فما كان انكارى عليكم الا عن قصور وجهل ، الآن قد صح عندي عذركم وانكشف لي ان المنفرد بالملك والملكوت والمرتبة والجبروت هو الواحد القهار فما انتم الا مسخرون تحت قهره

(المخرج ١١م ١٢) معنى كونه تعالى الاول والآخِر والظاهر والباطن . الجاحد ٨٤٥

وقدرته مرددون في قبضته وهو الاول والآخِر والظاهر والباطن فلما ذكر ذلك في عالم الشهادة استبعد منه ذلك وقيل له كيف يكون هو الاول والآخِر وهما وصفان متناقضان وكيف يكون هو الظاهر والباطن فالاول ليس بالآخِر والظاهر ليس بباطن؟ فقال هو الاول بالإضافة الى الموجودات اذ صدر منه الكل على الترتيب واحد بعد واحد وهو الآخِر بالإضافة الى سير السائرين اليه فانهم لا يزالون مترقبين من منزل الى منزل الى أن يقع الانتهاء الى تلك الحضرة فيكون ذلك آخِر السفر فهو آخِر في المشاهدة أول في الوجود وهو باطن بالإضافة الى العالمين في عالم الشهادة الطالبين لا درا كه بالحواس الخمس ظاهر بالإضافة الى من يطلبه في السراج الذي اشتعل في قلبه بالبصيرة الباطنة النافذة في عالم الملكوت فهكذا كان توحيد السالكين لطريق التوحيد في الفعل أعني من انكشف له أن الفاعل واحد فان قلت فقد انتهى هذا التوحيد الى أنه ينبت على الايمان بعالم الملكوت فن لم يفهم ذلك أو يجحده فما طريقه؟ فأقول أما الجاحد فلا علاج له الا أن يقال له انكارك لعالم الملكوت كانكار السمنية لعالم الجبروت وهم الذين حصروا العلوم في الحواس الخمس فانكروا القدرة والارادة والعلم لأنها لا تدرك بالحواس الخمس فلازموا حضيض عالم الشهادة بالحواس الخمس فان قال وأنا منهم فاني لأهتدي الا الى عالم الشهادة بالحواس الخمس ولا أعلم شيئا سواه فيقال انكارك لما شاهدناه مما وراء الحواس الخمس كانكار السوفسطائية للحواس الخمس فانهم قالوا ما نراه لا نثق به فلمنا نراه في المنام فان قال وأنا من جماعتهم فاني شك أيضا في المحسوسات فيقال هذا شخص فسد مزاجه وامتنع علاجه فيترك أياما قلائل وما كل مريض يقوى على علاجه الاطباء

هذا حكم الجاحد وأما الذي لا يجحد ولكن لا يفهم فطريق السالكين معه أن ينظروا الى عينه التي يشاهد بها عالم الملكوت فان وجدوها صحيحة في الأصل وقد نزل فيها ماء أسود يقبل الازالة والتنقية اشتغلوا ببقية اشتغال الكحال بالأبصار الظاهرة فاذا استوى بصره أرشد الى الطريق ليسلكها كما فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بمخوام أصحابه فان كان غير قابل للعلاج فلم يمكنه أن يسلك الطريق الذي ذكرناه في التوحيد ولم يمكنه ان يسمع كلام ذريات الملك والملكوت بشهادة التوحيد كلموه بحرف وصوت وردوا

ذروة التوحيد الى حضيض فهمه فان في عالم الشهادة أيضا توحيداً إذ يعلم كل أحد أن
النزل يفسد بصاحبين والبلد يفسد بأميرين فيقال له على حد عقوله: إله العالم واحد والمدير
واحد اذ (لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا) فيكون ذلك على ذوق ماواه في عالم الشهادة
فيخرس اعتقاد التوحيد في قلبه بهذا الطريق اللائق بقدر عقوله وقد كلف الله الانبياء
أن يكلموا الناس على قدر عقولهم ولذلك نزل القرآن بلسان العرب على حد عادتهم
في المحاوراة فان قلت فهل هذا التوحيد الاعتقادي هل يصلح أن يكون عماداً للتوكل
وأصلاً فيه؟ فأقول نعم فان الاعتقاد اذا قوي عمل عمل الكشف في اثاره الاحوال
الا أنه في الغالب يضعف ويتسارع عالياً الاضطراب والترازل غالباً ولذلك يحتاج صاحبه
الى متكلم يجرسه بكلامه أو الى أن يتعلم هو الكلام ليحرس به العقيدة التي تلقها
من استاذه أو من أبويه أو من أهل بلده

وأما الذي شاهد الطريق وسلكه بنفسه فلا يخاف عليه شيء من ذلك
بل لو كشف الغطاء لما ازداد يقيناً وان كان يزداد وضوحاً كما أن الذي
يرى انساناً في وقت الاسفار لا يزداد يقيناً عند طلوع الشمس بأنه انسان
ولكن يزداد وضوحاً في تفصيل خلقته وما مثال المكاشفين والمعتقدين الا
كسحرة فرعون مع أصحاب السامري فان سحرة فرعون لما كانوا مطامير على منتهى
تأثير السحرة لطول مشاهدتهم وتغير بنهم رأوا من موسى عليه السلام ماجاوز حدود
السحر وانكشف لهم حقيقة الأمر فلم يكثرثوا بقول فرعون (لاقطن أيديكم وأرجلكم
من خلاف) بل (قالوا لن نوثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت
قاض انما تقضي هذه الحياة الدنيا) فان البيان والكشف يمنع التغيير وأما أصحاب
السامري لما كان ايمانهم عن النظر الى ظاهر الثعبان فلما نظروا الى عجل السامري
وسموا خواره تغيروا وسموا قوله (هذا الهكم واله موسى) ونسوا (انه لا يرجع اليهم قولا
ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً) فكل من آمن بالنظر الى ثعبان يكفر لا محالة اذا نظر الى
عجل لان كليهما من عالم الشهادة والاختلاف والتضاد في عالم الشهادة كثير وأما
عالم الملكوت فهو من عند الله تعالى فلذلك لا نجد فيه اختلافاً وتضاداً أصلاً فان قلت
ما ذكرته من التوحيد ظاهر مهما ثبت أن الوسائط والاسباب مسخرات وكل ذلك

ظاهر الا في حركات الانسان فانه يتحرك ان شاء ويسكن ان شاء فكيف يكون مسخراً فاعلم انه لو كان مع هذا يشاء ان اراد أن يشاء ولا يشاء ان لم يرد ان يشاء لكان هذا عزلة القدم وموقع الغلط ولكن علم انه يفعل ما يشاء اذا شاء ان يشاء أم لم يشأ فليست المشيئة اليه اذ لو كانت اليه لافترقت الى مشيئة أخرى وتسلل الى غير نهاية واذا لم تكن اليه المشيئة فهما وجدت المشيئة التي تصرف القدرة الى مقدرها انصرفت القدرة لا محالة ولم يكن لها سبيل الى المخالفة

فالحرمة لازمة ضرورة بالقدرة والقدرة متعركة ضرورة عند انجرام المشيئة فالمشيئة تحدث ضرورة في القلب فهذه ضرورات ترتب بعضها على بعض وليس للعبد ان يدفع وجود المشيئة ولا انصراف القدرة الى المقدر بعدها ولا وجود الحركة بعد بحث المشيئة للقدرة فهو مضطر في الجميع فان قلت فهنا جبر محض والجبر يناقض الاختيار وأنت لانكر الاختيار فكيف يكون مجبوراً مختاراً؟ فأقول لو انكشف الغطاء لعرفت انه في عين الاختيار مجبور فهو اذا مجبور على الاختيار فكيف يفهم هذا من لا يفهم الاختيار؟ فلنشرح الاختيار بلسان المتكلمين شرحاً وجيزاً يليق بما ذكر متطعلاً وقابلاً فان هذا الكتاب لم يقصد به الا علم المعاملة ولكنني أقول لفظ الفعل في الانسان يطلق على ثلاثة أوجه إذ يقال الانسان يكتب بالأصابع ويتنفس بالرئة والخنجرة ويحرق الماء اذا وقف عليه بجسمه فينسب اليه الخرق في الماء والتنفس والكتابة وهذه الثلاثة في حقيقة الاضطرار والجبر واحد ولكنها تختلف وراء ذلك في امور فأعرب لك عنها بثلاث عبارات: فسمي خرقه للماء عند وقوعه على وجهه فعلاً طبيعياً ونسي تنفسه فعلاً ارادياً ونسي كتابته فعلاً اختيارياً والجبر ظاهر في الفعل الطبيعي لانه مما وقف على وجه الماء أو تخطى من السطح للهواء الخرق الهواء لا محالة فيكون الخرق بعد التخطي ضرورياً والتنفس في معناه فان نسبة حركة الخنجرة الى ارادة التنفس كنسبة انخراق الماء الى ثقل البدن فهما كان الثقل موجوداً وجد الانخراق بعده وليس انثقل اليه وكذلك الارادة ليست اليه ولذلك لو قصد عين الانسان بآلة طبق الاجفان اضطراراً ولو اراد أن يتركها مفتوحة لم يقدر مع أن تفيض الاجفان اضطراراً فعل ارادي ولكنه اذا تمثل صورة

الآية في مشاهدته بالادراك حدثت الإرادة بالتفويض ضرورة وحدثت الحركة بها ولو أراد أن يترك ذلك لم يهدر عليه مع أنه فعل بالقدرة والإرادة فقد التحق بهذا بالفعل الطبيعي في كونه ضروريا واما الثالث وهو الاختياري فهو مظنة الالتباس كالكتابة والنطق وهو الذي يقال فيه ان شاء فعل وان شاء لم يفعل وتارة يشاء وتارة لا يشاء فيظن من هذا ان الامر اليه وهذا للجهل بمعنى الاختيار فلنكشف عنه وبيانه ان الإرادة تبع للعلم الذي يحكم بان الشيء موافق لك والاشياء تنقسم الى ما تحكم مشاهدتك الظاهرة او الباطنة بانه يوافقك من غير تحير وتردد والى ما قد يتردد العقل فيه فالذي تقطع به من غير تردد أن يقصد عينك مثلابرة او بدنتك بسيف فلا يكون في علمك تردد في ان دفع ذلك خير لك وموافق فلا جرم تنبث الإرادة بالعلم والقدرة بالإرادة وتحصل حركة الاجفان بالدفع وحركة اليد بدفع السيف ولكن من غير روية وفكرة ويكون ذلك بالإرادة ومن الاشياء ما يتوقف التمييز والعقل فيه فلا يدري انه موافق ام لا فيحتاج الى روية وفكر حتى يتميز أن الخير في الفعل او الترك فاذا حصل بالفكر والرؤية العلم بان احدهما خير التحق ذلك بالذي يقطع به من غير روية وفكر فانبعثت الإرادة ههنا كما تنبث لدفع السيف والسنان فاذا انبعثت لفعل ما ظهر للعقل انه خير سميت هذه الإرادة اختيارا مشتقا من الخبير اي هو انبعث الى ما ظهر للعقل انه خير وهو عين تلك الإرادة ولم ينتظر في انبعاثها الى ما انتظرت تلك الإرادة وهو ظهور خيرية الفعل في حقه الا ان الخيرية في دفع السيف ظهرت من غير روية بل على البديهية وهذا اقتصر الى الروية فالاختيار عبارة عن ارادة خاصة وهي التي انبعثت باشارة العقل فيما له في ادراكه توقف وعن هذا قيل ان العقل يحتاج اليه للتمييز بين خير الخبيرين وشر الشريرين ولا يتصور ان تنبث الإرادة الا بحكم الحس والتخييل أو بحكم جزم من العقل ولذلك لو أراد الانسان أن يحز رقبة نفسه مثلا لم يمكنه لالعدم القدرة في اليد ولا ادم السكين ولكن لتقد الإرادة الداعية المشخصة للقدرة وانما فقدت الإرادة لانها تنبث بحكم العقل او الحس بكون الفعل موافقا وقتله نفسه ليس موافقا له فلا يمكنه مع قوة الاعضاء أن يقتل نفسه الا اذا كان في حقوبة مؤلمة لا تطاق فان العقل

هنا يتوقف في الحكم ويتردد لأنه تردد بين شر الشرين فان ترجيح له بعد الرواية ان ترك القتل اقل شرالم يمكنه قتل نفسه وان حكم بان القتل اقل شرا وكان حكمه جزما لا ميل فيه ولا صارف منه انبثت الارادة والقدرة وأهلك نفسه كالذي يتبع بالسيف للقتل فانه يرمي بنفسه من السطح مثلا وان كان مهلكا ولا يبالى ولا يمكنه أن لا يرمي نفسه فان كان يتبع بضرب خفيف فان انتهى الى طرف السطح حكم العقل بان الضرب أهون من الرمي فوقت اعضاؤه فلا يمكنه أن يرمي نفسه ولا تنبث له داعية التبتة لان داعية الارادة مسخرة بحكم العقل والحس، والقدرة مسخرة لداعية، والحركة مسخرة للقدرة، والكل مقدر بالضرورة فيه من حيث لا يدري فاما هو محل ومجرى لهذه الامور فاما ان يكون منه فكلا ولا. فاذا معنى كونه مجبورا ان جميع ذلك حاصل فيه من غيره لانه ومعنى كونه مختارا انه محل لارادة حدثت فيه جبرا بعد حكم العقل بكون الفعل خيرا محضا موافقا وحدث الحكم ايضا جبرا فاذا هو مجبور على الاختيار ففعل النار في الاحراق مثلا يجبر محض وفعل الله تعالى اختيار محض وفعل الانسان على منزلة بين المنزلتين فانه جبر على الاختيار فطلب اهل الحق لهذا عبارة ثالثة لانه لما كان فنا ثالثا واتموا فيه بكتاب الله تعالى فسموه كسبا وليس مناقضا للجبر ولا للاختيار بل هو جامع بينهما عند من فهمه وفعل الله تعالى يسمى اختيارا بشرط أن لا يفهم من الاختيار ارادة بعد تجميع وتردد فان ذلك في حقه محال وجميع الالفاظ المذكورة في اللغات لا يمكن أن تستعمل في حق الله تعالى الا على نوع من الاستعارة والتجوز وذكر ذلك لا يليق بهذا العلم ويطول القول فيه

فان قلت فهل قول ان العلم ولد الارادة والارادة ولدت القدرة والقدرة ولدت الحركة وان كل متأخر حدث من المتقدم فان قلت ذلك فقد حكمت بحدوث شيء لا من قدرة الله تعالى وان آيت ذلك فاما معنى ترتب البعض من هذا على البعض؟ فاعلم أن القول بان بعض ذلك حدث عن بعض جهل محض سواء عبر عنه بالتولد او بغيره بل حوالة جميع ذلك على المعنى الذي يعبر عنه بالقدرة الازلية وهو

الاصل الذي لم يقف كافة الخلق عليه الا الراسخون في العلم فانهم وقفوا على كنه
معناه والكافة وقفوا على مجرد لفظه مم نوع تشبيه بقدرتنا وهو بعيد عن الحق وبيان
ذلك يطول ولكن بعض المقدورات مترتب على البعض في الحدوث ترتيب المشروط
على الشرط فلا تصدر من القدرة الازلية ارادة الا بعد علم ولا علم الا بعد حياة
ولا حياة الا بعد محل الحياة وكما لا يجوز أن يقال الحياة تحصل من الجسم الذي هو
شرط الحياة فكذلك في سائر درجات الترتيب ولكن بعض الشروط ربما ظهرت
للعمامة وبعضها لم يظهر الا للخواص المكاشفين بنور الحق والا فلا يتقدم متقدم
ولا يتأخر متأخر الا بالحق والذموم وكذلك جميع افعال الله تعالى ولولا ذلك لكان
التقديم والتأخير عبثا يضاهي فعل المجانين تعالى الله عن قول الجاهلين علوا كبيرا
والي هذا أشار قوله تعالى (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) وقوله تعالى (وما
خلقنا السموات والارض وما بينهما الا عين * ما خلقناها الا بالحق)

فكل ما بين السماء والارض حادث على ترتيب واجب وحق لازم لا يتصور ان يكون
الا كما حدث وعلى هذا الترتيب الذي وجدنا تأخر متأخر الا لا نتظار شرطه والمشروط
قبل الشرط محال والمحال لا يوصف بكونه مقدورا فلا يتأخر العلم عن النطفة الا
لقد شرط الحياة ولا تتأخر عنها الارادة بعد العلم الا لفقد شرط العلم وكل ذلك
منهاج الواجب وترتيب الحق ليس في شيء من ذلك لهب واتفاق بل كل ذلك
بحكمة وتدبير وتفهم ذلك عسير ولكننا نضرب ثوقف المقذور مع وجود القدرة على
وجود الشرط مثلا يقرب مبادي الحق من الافهام الضعيفة وذلك بأن تقدر انسانا
مهدئا قد انغمس في الماء الى رقبته فاحدث لا يرتفع عن أعضائه وان كان الماء هو
الرافع وهو ملاق له فقد القدرة الازلية حاضرة ملاقية للمقدورات متعلقة بها ملاقة
الماء للاعضاء ولكن لا يحصل بها المقذور كما لا يحصل رفع الحدث بالماء انظروا
للشرط وهو غسل الوجه فاذا وضع الواقف في الماء وجهه على الماء عمل الماء في سائر
اعضائه وارتفع الحدث فرما يظن الجاهل ان الحدث ارتفع عن اليدين برفعه عن
الوجه لانه حدث عقبه اذ يقول كان الماء ملاقيا ولم يكن رافعا والماء لم يتغير عما كان
فكيف حصل منه ما لم يحصل من قبل بل حصل ارتفاع الحدث عن اليدين عند

غسل الوجه فاذا غسل الوجه هو الرفع للحدث عن اليدين وهو جيل يضاهي ظن من يظن ان الحركة تحصل بالقدرة والقدرة بالارادة والارادة بالعلم وكل ذلك خطأ بل عند ارتفاع الحدث عن الوجه ارتفع الحدث عن اليد بالماء الملاقي لها لا بغسل الوجه والماء لا يتغير واليد لم تتغير ولم يحدث فيهما شيء ولكن حدث وجود الشرط فظهر اثر الصلة فمكذا ينبغي ان تفهم صدور المقدورات عن القدرة الازلية مع ان القدرة قديمة والمقدورات حادثة وهذا فرع باب آخر لعالم آخر من عوالم المكاشفات فلتترك جميع ذلك فان مقصودنا التنبيه على طريق التوحيد في الفعل فان الفاعل بالحقيقة واحد فهو الخوف والمرجو وعليه التوكل والاعتماد ولم تقدر على ان تذكر من بحار التوحيد الا قطرة من بحر المقام الثالث من مقامات التوحيد واستيفاء ذلك في عمر نوح محال كاستيفاء ماء البحر بأخذ القطرات منه وكل ذلك ينطوي تحت قول لا اله الا الله وما أخف موثته على اللسان وما اسهل اعتقاد مفهوم لفظه على

القلب وما اعز حقيقته ولبه عند العلماء الراسخين في العلم فكيف عند غيرهم

فان قلت فكيف الجمع بين التوحيد والشرع ومعنى التوحيد أن لا فاعل الا الله تعالى ومعنى الشرع اثبات الافعال للعباد فان كان العبد فاعلا فكيف يكون الله تعالى فاعلا وان كان الله تعالى فاعلا فكيف يكون العبد فاعلا ومفعول بين فاعلين غير مفهوم؟ فأقول نعم ذلك غير مفهوم اذا كان للفاعل معنى واحدا وان كان له معنيان ويكون الاسم مجازا مرددا بينهما لم يتناقض كما يقال قتل الامير فلانا ويقال قتله الجلاد ولكن الامير قاتل بمعنى والجلاد قاتل بمعنى آخر فكذلك العبد فاعل بمعنى والله عز وجل فاعل بمعنى آخر فمعنى كون الله تعالى فاعلا انه المخترع الموجد ومعنى كون العبد فاعلا انه المحل الذي خلق فيه القدرة بعد ان خلق فيه الارادة بعد ان خلق فيه العلم فان ربطت القدرة بالارادة والحركة بالقدرة ارتباط الشرط بالمشروط وارتبط بقدرة الله ارتباط المعلول بالعللة وارتباط المخترع بالمتخرع وكل ماله ارتباط بقدرة فان محل القدرة يسمى فاعلا له كيف كان الارتباط كما يسمى الجلاد قاتلا والامير قاتلا لان القتل ارتبط بقدرة الامير ولكن على وجهين مختلفين فلذلك سمي فعلا لها فكذلك ارتباط المقدورات بالقدرتين ولاجل توافق ذلك وتطابقه نسب الله تعالى الافعال في القرآن مرة الى الملائكة ومرة الى

العباد ونسبها بينهما مرة أخرى الى نفسه فقال تعالى في الموت (قل يتوفاكم ملك الموت) ثم قال عز وجل (الله يتوفى الانفس حين موتها) وقال تعالى (أفرايتم ما تحرثون) أضاف اليها ثم قال تعالى (أما صبينا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقاً فأنبتنا فيها حياء وعنبا) وقال عز وجل (فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا) ثم قال تعالى (فنفخنا فيها من روحنا) وكان النافخ جبريل عليه السلام وكما قال تعالى (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه) قيل في التفسير معناه اذا قرأه عليك جبريل وقال تعالى (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم) فأضاف القتل اليهم والتعذيب الى نفسه والتعذيب هو عين القتل بل صرح وقال تعالى (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) وقال تعالى (وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى) وهو جمع بين النفي والاثبات ظاهر او لکن مضاه ومارميت بالمعنى الذي يكون الرب به راميا اذ رميت المعنى الذي يكون الصمد به راميا إذ هما معنيان مختلفان وقال الله تعالى (الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم) ثم قال (الرحمن علم القرآن) وقال (علمه البيان) وقال (ان علينا بيانه) وقال (أفرايتم ما تمنون) أأنتم تخلفونه أم نحن الخالقون) ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصف ملك الارحام « انه يدخل الرحم فيأخذ النطفة في يده ثم يصورها جسدا فيقول يارب اذكر أم اثنى أسوي أم معوج ؟ فيقول الله تعالى ماشاء ويخلق الملك وفي لفظ آخر - ويصور الملك ثم ينفخ فيه الروح بالسعادة أو بالشقاوة »

وقد قال بعض السلف ان الملك الذي يقال له الروح هو الذي يولج الارواح في الاجساد وأنه يتنفس بوصفه فيكون كل نفس من أنفاسه روحا يلج في جسم ولذلك سمي روحا وما ذكره في مثل هذا الملك وصفته فهو حق شاهده أرباب القلوب يبصائرهم فأما كون الروح عبارة عنه فلا يمكن ان يعلم الا بالقل والحكم به دون تخمين مجرد وكذلك ذكر الله تعالى في القرآن من الأدلة والآيات في الارض والسموات ثم قال (أولم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد) وقال (شهد الله أنه لا اله الا هو) فيبين انه الدليل على نفسه وذلك ليس متناقضا بل طرق الاستدلال مختلفة فكيف من طالب عرف الله تعالى بالنظر الى الموجودات وكمن طالب عرف كل الموجودات بالله كما قال بعضهم عرفت ربي بربي ولولا

ربي لما عرفت ربي وهو معنى قوله تعالى (أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد)
وقد وصف الله تعالى نفسه بأنه المحيي والمميت ثم فوض الموت والحياة الى ملكين فهي
التيبر أن ملكي الموت والحياة تناظرا فقال ملك الموت أنا أميت الأحياء وقال ملك
الحياة أنا أحيي الموتى فأوحى الله تعالى اليهما كوننا على عملكما وما سنخرتكما له من الصنع
وأنا المميت والمحيي لا يميت ولا يحيي سواي فإذا الفعل يستعمل على وجوه مختلفة فلا
تتناقض هذه المعاني إذا فهمت ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للذي ناوله الثمرة
«خذها لو لم تأتها لآلتك» أضاف الأتيان اليه والى الثمرة ومعلوم ان الثمرة لا تأتي على
الوجه الذي يأتي الانسان اليها وكذلك لما قال التائب أتوب الى الله تعالى ولا أتوب
الى محمد فقال صلى الله عليه وسلم «عرف الحق لأهله» فكل من أضاف الكل الى
الله تعالى فهو المحقق الذي عرف الحق والحقيقة ومن أضافه الى غيره فهو المتجاوز
والمستعير في كلامه وللتجاوز وجه كما أن للحقيقة وجهها واسم الفاعل وضعه واضع اللغة
للمخترع ولكن ظن أن الانسان مخترع بقدرته فسماه فاعلا بحركته وظن أنه تحقيق
وتوهم أن نسبه الى الله تعالى على سبيل الجواز مثل نسبة القتل الى الأمير فانه مجاز
بالإضافة الى نسبه الى الجلاد فلما انكشف الحق لأهله عرفوا أن الأمر بالعكس وقالوا
ان الفاعل قد وضعته أي اللغوي للمخترع فلا فاعل الا الله فالاسم له بالحقيقة ولغيره
بالمجاز أي تجوز به عما وضعه اللغوي له ولما جرى حقيقة المعنى على لسان بعض الأعراب
قصداً أو اتفاقاً صدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «أصدق بيت قاله الشاعر
قول لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل» أي كل ما لا قوام له بنفسه وإنما قوامه بغيره
فهو باعتبار نفسه باطل وإنما حقيقته وحقيقته بغيره لا بنفسه فإذا لاحق بالحقيقة الا
الحق القيوم الذي ليس كئله شيء فانه قائم بذاته وكل ما سواه قائم بقدرته فهو الحق
وما سواه باطل ولذلك قال سهل : يا مسكين كان ولم تكن ويكون ولا تكون فلما كنت
اليوم صرت تقول أنا وأنا كن الآن كما لم تكن فانه اليوم كما كان
فان قلت فقد ظهر الآن أن الكل جبر فإمضى الثواب والعقاب والغضب والرضا وكيف
غضبه على فعل نفسه؟ فاعلم ان معنى ذلك قد أشرنا اليه في كتاب الشكر فلا تطول بإعادته فهذا
هو القدر الذي رأينا الله عليه من التوحيد الذي يورث حال التوكل ولا يتم هذا الا بالأيمان

بالرحمة والحكمة فان التوحيد يورث النظر الي مسبب الاسباب والايان بالرحمة
وسمها هو الذي يورث الثقة بسبب الاسباب ولا يتم حال التوكل كما سيأتي الا بالثقة
بالوكل وطمأنينة القلب الي حسن نظر الكفيل وهذا الايمان أيضا باب عظيم من أبواب
الايان وحكاية طريق المكاشفين فيه تطول فلنذكر حاصله ليعتقده الطالب لقام التوكل
اعتقادا قاطعا لا يستريب فيه وهو أن يصدق تصديقا يقينا لا ضعف فيه ولا ريب
أن الله عز وجل لو خلق الخلق كلهم على عقل أعقلهم وعلم أعلمهم وخلق لهم من
العلم ما تحمله نفوسهم وأفاض عليهم من الحكمة ما لا تمتحى لوصفها ثم زاد مثل عدد
جميعهم علما وحكمة وعقلا ثم كشف لهم عن عواقب الامور وأطلعهم على اسرار
الملوكوت وعرفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات حتي اطلعوا به على الخير والشر
والنفع والضر ثم أمرهم ان يدبروا الملك والملوكوت بما أعطوا من العلوم والحكم لما
اتقضى تدبير جميعهم مع التعاون والتظاهر عليه أن يزداد فيما دبر الله سبحانه الخلق
في الدنيا والآخرة جناح بهوضة ولا أن ينقص منها جناح بهوضة ولا أن يرفع منها
ذرة ولا أن ينخفض منها ذرة ولا ان يدغم مرض او عيب او نقص او فقر او ضر
عن يمينه ولا ان يزال صحة او كمال او غنى او نفع عن يمينه بل كل ما خلق
الله تعالى من السموات والارض ان رجعوا فيها البصر وطولوا فيها النظر ما رأوا
فيها من تفاوت ولا فطور

وكل ما قسم الله تعالى بين عباده من رزق واجل وسرور وحزن وعجز
وقدرة وايمان وكفر وطاعة ومعصية فكله عدل محض لا جور فيه وحق
صرف لا ظلم فيه بل هو على الترتيب الواجب الحق علي ما ينبغي وكما ينبغي
وبالقدر الذي ينبغي وليس في الامكان اصلا احسن منه ولا اتم ولا اكمل ولو كان
وادخره مع القدرة ولم يفضل بفعله لكان بخلا يناقض الجود وظلما يناقض العدل
ولو لم يكن قادرا لكان عجزا يناقض الاوهية بل كان فقرا وضر في الدنيا فهو نقصان
في الدنيا وزيادة في الآخرة وكل نقص في الآخرة بالاضافة الي شخص فهو اسيم
بالاضافة الي غيره اذ لولا الليل لما عرف قدر النهار ولولا المرض لما تنعم الاصحاء
بالصحة ولولا النار لما عرف عمل الجنة قدر النعمة وكان غدا ارواح الانس بأرواح

البهائم وتسلطهم علي ذبحها ليس بظلم بل تقديم الكامل علي الناقص عين العدل
فكذلك تفخيم النعم علي سكان الجنان بتعظيم المقربة علي أهل النيران وفداء أهل
الايان بأهل الكفران عين العدل وما لم يخلق الناقص لم يعرف الكامل ولولا خلق
البهائم لما ظهر شرف الانس فان الكمال والناقص يظهر بالاضافة فمقتضي الجود
والحكمة خلق الكامل والناقص جميعا وكما ان قطع اليد اذا تأكلت إبقاء علي الروح
عدل لانه فداء كامل بناقص فكذلك الامر في التفاوت الذي بين الخلق في القصة
في الدنيا والآخرة فكل ذلك عدل لاجور فيه وحق لا لب فيه وهذا الآن بحر
آخر عظيم العمق واسع الاطراف مضطرب الامواج قريب في السعة من بحر التوحيد
فيه غرق طوائف من القاصرين ولم يعلوا أن ذلك غامض لا يعقله الا العالمون
ووراء هذا البحر سر القدر الذي تبحر فيه الاكثرون ومنع من إفشاء سره
المكاشفون

والحاصل ان الشر والخير مقضي به وقد كان ما قضي به واجب الحصول بعد سبق
المشيئة فلا راد لحكمه ولا مقب لفضائه وأمره، بل كل صغير وكبير مستطر، وحصوله
يقدر معلوم منتظر، وما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولتقتصر
علي هذه المرآة من علوم المكاشفة التي هي أصول التوكل ولترجع الي علم
المعاملة ان شاء الله تعالى وحسبنا الله ونعم الوكيل

